Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والأعضاء قيمة أولى (وهي صفات ظاهرة)، وإنما باعتبار النبل والطهارة والعذرية والإخلاص (وهي صفات مضمرة) القيمة الأولى التي من دونها لا تكون الأنثى أنثى أو المرأة امرأة، وبذلك قلب دون كيشوت سلم القيم المبني أساساً من قبل المجتمع الذي يهمه الظاهر أكثر من المستبطن. أما هو، أعني دون كيشوت، فقد همّه المستبطن (النية الطيبة) أكثر من الفعل المادي، وعدّ الانهماك في تحقيق مادية النية الطيبة فعلاً جباراً وإنسانياً حتى لو لم يقترن بالنجاح كنتيجة طيبة ومفرحة في العرف الاجتماعي.

لقد كان دون كيشوت عاشقاً للمعاني المجردة، وليس للصور الظاهرة، أو الوجوه الناعمة اللامعة الملوّنة، ويزداد هذا العشق سمواً في نظرنا حين ندرك أنه لا يعرف (دولسينيا) حقاً، وأنه لم يختبر دواخلها، وأنها لا تدري به لاعاشقاً، ولا فارساً، ولا إنساناً أيضاً، وهذا عرض من أعراض العشق الذي قلما نصادفه ليس في الحياة وحسب، وإنما في الأدبيات العالمية بعامة.

وهنا أتساءل هل تمثل نظرة دون كيشوت هذه نظرة (العزوبية الطيبة) عند الرجل تجاه عذرية المرأة وطهارتها؟! ربما، لأن هذه النظرة لن تتغير على الرغم من كل المصادفات الأنثوية التي عرفها دون كيشوت في القفار، والفنادق والخانات، والقصور، وأطيان النبلاء والدوقات، فقد ظلت النساء جميعاً، في نظره، قاصرات في الحضور والمعنى عن حضور (دولسينيا) ومعانيها، ترى هل كان في نية سرفانتس أن يقارب شخصيتي السيد المسيح عليه السلام، وأمه السيد العذراء من خلال تشبه دون كيشوت بشخصية السيد المسيح، وتشبه (دولسينيا) بشخصية السيدة العذراء؟ ربما، لأن القرائن كثيرة خصوصاً ما يتعلق منها بالسلوك، ونظرة الآخرين إليهما معاً (دون كيشوت) و (دولسينيا)، أم أن الاعتقاد يذهب بنا إلى أن سرفانتس أراد من تلك العلاقة العشقية/الحلم ما بين دون كيشوت ودولسينيا أن يعيد للعواطف جميعاً السمو والبكورة بعدما ابتذلت وامتهنت، وبعدما صارت أجساد النساء مباحة أمام المجرمين والسوقيين ما داموا يملكون السطوة والمال وأشكال النفوذ المتعددة، وهذا بالضبط ما أحط بقيمة المرأة وجعلها حقلاً للمتعة الزائفة والبذاءات لا حقلاً للطهارة والعفة والنبل والرهافات الأنثوية. الأسئلة هنا مشروعة، والاحتمالات مفتوحة على الرغم من تعددها بسبب غنى هاتين الشخصيتين (دون كيشوت) و (دولسينيا).

إن ما أراده دون كيشوت هو إعادة الاعتبار إلى المرأة باعتبارها مخلوقاً تليق به صفة العذرية كما تليق به سمة السمو، فهو تعرف إلى الفتاة الفلاحة